

العولمة والعالمية العربية والإسلامية

عبدالعزیز بنعبدالله

عضو أكاديمية المملكة المغربية والمجامع العربية

قبل الحديث عن عالمية الفكر الإسلامي في شتى المجالات والمجالي الحضارية فكريا واقتصاديا واجتماعيا يجب أن نحلل مفهوم العولمة Mondialisation كما يراها الغربيون أنفسهم انطلاقا مما صدر لحد الآن من أبحاث في الموضوع منذ 1996 فقد استكنه كثير من رجالات الفكر والصحافة خاصة بأوربا الداعي الحقيقي لتبني هذا المدرك الجديد في النظام العالمي الذي ينتظره القرن الحادي والعشرون فقد كتبت جريدة (لوموند) في (قسمها الدبلوماسي) (في غشت 1998) بحثا تساءلت فيه عما سيدعمنا من جديد خلال القرن المقبل؟ وكيف سنتقاسم دول العالم المائتان الأدوار على ظهر البسيطة؟ حيث ستكون بعضها أكثر نفوذا من أخرى ثم تختم الجريدة الفرنسية قائلة "ولكن دولة هي الولايات المتحدة الأمريكية المعززة بقوتها الاقتصادية والعسكرية والثقافية تبذل قصارى الجهد لتحفظ بسيادتها غير المنازعة فهي تسعى خاصة في العمل دون إشراك غيرها ولصالحها الخاص في وضع مقومات (العصر الإلكتروني) لتحتكر لنفسها في القرن المقبل السيطرة على دواليب وشبكات العالم ويهدف جهاز (الأنترنيت) Internet الآن قبل كل شيء إلى خدمة غاية واحدة هي الهيمنة على التجارة عبر المعمور" ثم ختمت قائلة "ليست هنالك هيمنة دائمة لأن أوربا وبعض دول الجنوب (من العالم الثالث) بدأت تتحرك ولو مع احتشام ضد هذا الاتجاه". وكتبت لوموند (العالم الدبلوماسي يونيو 1997) بقلم ريكاردو بيتريلا Riccardo Petrella تساءلت هل يمكن تفادي "العولمة" واصفة إياها بألة جهنمية ثم تقول: "إننا إذا عارضنا العولمة التي يسودها منطق الحرب والسطو النابيعين من اقتصاد السوق الرأسمالية الموسومة بالتححر والخلل في التوازن والخصوصية التكنوقراطية وروح التنافسية على الربح- فإننا لا نعارض أشكالا أخرى من تعاون الحكومات ومن العولمة الحق لأن ماتت آلاف المنظمات في الأركان الأربعة من العالم تجهد نفسها في إقرار نظام يبني على مبادئ جديدة وبنائيات وهياكل طريفة من تعاونيات حكومة عالمية حقيقية تسعى لضمان الأمن للإنسانية عسكريا وبيئيا وغذائيا في نظام حوار الثقافات والحضارات وتطور البحث العلمي التكنولوجي الموجهة نحو أهداف إنسانية اجتماعية فأكثر عائق تواجهه هذه المنظمات هو اصطدامها حقا بالعولمة العالمية المبنية على أولوية المصالح وعلى التحرر الفعلي بدون حدود للمقاولة الخاصة وعلى سيادة السوق التي تزعم أنها منطلق تقويم وضبط ذاتيين فلذلك لا ينتظر من هذه العولمة سوى تبديلات فاحشة بدون هواده ولا احتشام مع خلل فادح في الأنظمة الوظيفية ذلك أن ترضية حاجيات المجتمع ليست في عداد أهداف هذه العولمة ذات المطامح الخرقاء وقد نتج بالفعل عن مطالبة الولايات المتحدة صرف الدولار بالذهب عام 1971 وتعميم تحرير حركات رؤوس الأموال بأمريكا عام 1974 - ظهور بادرة خطيرة هي عدم استقرار النظام النقدي العالمي ذلك أن العولمة تسوق الاقتصاد نحو هياكل إنتاجية جوفاء غير قارة وذلك بدلا من تقوية قيمة الموارد البشرية وتعزيز التشغيل البشري والعلائق الاجتماعية. ونشرت صحيفة (بوليتيك) Politique (عدد 12 أبريل 1997) ملفا حول العولمة أبرزت فيه آراء مختلف رجال الفكر والسياسة حول العولمة التي ينتظر منها إقامة نظام اقتصادي دولي أكثر عدالة بدلا من انبثاق نظام تراكمي عالمي تسوده سيادة مالية مبنية على الأرباح والمصالح . وكتبت (لوموند دبلوماسيك عدد يناير 1999) بقلم بيرنار كاسن Bernard Cassen حول (التبادل الحر Libre échange) الذي يبرز كأخر معقل لصنف من العولمة التي تجعل منها الأزمات المالية نظاما مهزوزا مهلهلا ذلك أن معركة العولمة هي البرنامج الوحيد لأولئك الوصوليين Intégristes الراغبين في مد الخروق والنكبات الاجتماعية لمجموع مناطق العالم بأسيا الوسطى وروسيا وأمريكا اللاتينية. وواصلت نفس الصحيفة في سلسلة انتقادية مرة منذ عام 1997 ملاحظة (عدد يونيه 1998) أن المجموعات الكبرى في الثلاثية الدولية Triade (أمريكا الشمالية والاتحاد الأوربي واليابان) قد اغتتمت ما طرأ من خلل على الاقتصاد العالمي ففرضت وجودها على المعمور لتصبح في كل بلد العامل

الاقتصادي الحقيقي المسيطر على مجموع أسهم السوق والبورصات وقد نتج عن ذلك انهيار السوق
الأسبوية بشكل لم يسبق أن عرف من قبل مس اليابان نفسها الني اكتوت بناها.
وتساوقت مع عناصر هذه السلسلة دراسات أخرى كالتى تحمل وصفا جامعا للعولمة بعنوان " النظام
الجديد للرأسمالية المالية (عدد يراير 1998) قورن بالاتفاقيات الاستعمارية التي هي أشبه بهذه في
غطرسها و روح الهيمنة التي تذكيها ثم ظهر بحث آخر حلل العولمة كتحول من الليبرالية إلى الاستبدادية
منذ عام 1989 ضمن جهاز إكراهي أشبه بهياكل الامبراطوريات القديمة التي تربط الاقتصاد العولمي
بالاسترقاق الذي يحده بعض عمالقة النظام الجديد إلى استغلال مائة وعشرين مليون طفل بدون مقابل
لاسيما وقد جمعت الثروات بالغرب في أيدي بعض العائلات المحظوظة وبذلك تدخل الإنتاجية في دوامة
جوفاء نحو الانهيار حيث استعويض عن المثل الديموقراطية باللصوصية السياسية العسكرية والفاشية
المقنعة.

وقد انتقلت من صحيفة إلى كتاب ومن ملف دولي إلى آخر وكلها تكاد تجمع على النقد اللاذع للعولمة في
إطارها الحالي غير أن اختلاف منابع هذه البحوث داخل أوروبا وخارجها يحلل بشتى الوسائل ومختلف
الذرائع الأبعاد الخطيرة للنظام العولمي الجديد لاسيما وأنه جعل أسيسة أولية لهيكلته هي إلغاء الحيز
الجغرافي بين الشعوب وفتح أبواب المناحي العالمية في وجه الأقوياء من عمالقة الاقتصاد مما يدعم
الفوارق الاجتماعية فيختلط الحابل بالنابل والحق بالباطل مع ظهور أحلام وأمان تستهدف من بين ما
تستهدف التطهير العرقي - كما وقع في الكوسوفو- كل ذلك خارج الحدود التقليدية وضد الوجود
المجتمعي وقد صدر كتاب في الموضوع في مايه 1997 بقلم جيلبير ريست Gilbert Rist (219 ص)
وصدرت عشرات المصنفات حول العولمة الثقافية العشوائية الحديثة من كتاب بقلم Pierrot Marie
Dominique حول الأمن الخيالي وانتفاء الهوية وأزمة المعرفة للجميع وأناشيد الفاشية ومستقبل الفكر
الرحال (خارج حدود المواطنة) . وقد انعقدت عشرات الندوات لتحليل العولمة والهوية الثقافية في سانياكو
والنرويج ومدريد واشبيلية والرباط وبروكسيل آخرها بعنوان : " أوروبا في خدمة عولمة ذات وجه إنساني
" وقد أبى الزعيم الاشتراكي (كونزاليز P. Gonzalez) إلا الإدلاء بدلوه في إبراز مفعول العولمة إزاء
الهوية الفكرية وكمسار تاريخي يواجه الإنسانية اليوم.

وتحفل (الأنترنيت) بعشرات الأبحاث حول عولمة الاقتصاد وتأثيرها في التنمية العشوائية لمنابع الشغل.
وكان العالم الثالث أول حفل لتجربة العولمة منذ عام 1996 حيث صدر بحث في جريدة لوموند (9 مايه)
أكد أن عولمة المبادلات لم يستفد منها سوى جزء من العالم الثالث باندرجه في الاقتصاد العالمي ضمن
نمو التجارة الدولية غير أن الفارق مع العالم الصناعي يوشك أن يزداد لاسيما وأن أربعاً وأربعين دولة من
الأقطار النامية تنافس حجم مبادلاتها في حين لم ينل نصف هذه الأقطار حظاً من الاستثمارات المباشرة
وتوشك هذه الفوارق أن تستديم على حساب الفقراء نظراً لتطور ميكانيزمات "الدفاع" في البلدان
الصناعية وانعدام أو قلة البنيات التحتية في الدول النامية مع ارتفاع تكاليف النقل فيها وخاصة بالقارة
الإفريقية غير أن البنك العالمي يُمني هذه الدول بالتعجيل بإقحامها في الاقتصاد الدولي إذا ما واصلت
تحرير تجارتها الخارجية وفسح المجال للاستثمارات الأجنبية بتخفيض الرسوم الجمركية إلى حد فتح
الباب على مصراعيه وقد سارت في هذا الخط العولمي أقطار في طليعتها الشرق الأقصى والأرجانتين
وتركيا والمغرب وغانة التي مارست سياسة تستهدف الاستقرار الاقتصادي بإجراء إصلاحات بنوية
يقول عنها البنك العالمي بأنها كانت حافزة خلال العقد الأخير لتسريع الاندماج بموازاة مع نمو الثراء
الوطني وفي هذا الخضم لم تسارع معظم الدول النامية المنتجة للمواد الأولية إلى هذا الاندماج غير أن
وسيلة عولمية أخرجت حداثتها إلى قطع خطوات أولى في هذا المسار وهي تبني سياسات الخصوصية التي
أدت إلى جلب تقنيات ورؤوس أموال أجنبية.

ومعنى هذا أن العولمة تغزو الآن العالم كله بالرغم عما تنطوي عليه من خلفيات تغطي حقائقه المرة فكل
الذين ينتقدونها قد دخلوا فيها لأن تيار الحياة المعاصرة لا يمكن التخلي عن الاندراج في دوابه إذ أن
شبيكات التواصل الاقتصادي المعاصر متداخلة لا مناص من أخذها ككل وقد لقننا القرآن الكريم مبادئ
يتجلى بعضها في قوله تعالى : " ويسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما
أكبر من نفعهما " وانتهى المطاف بتحريمه رغم ذلك في آية لاحقة فالعولمة شر لا محيد عنه لأننا بمبادتنا

المثلى لا يمكن أن نجد مجالاً للحياة في بحبوحة مهزوزة إذا لم نساير مقاييس العصر وذلك بالرغم من كوننا إذا عرفنا ماهية العولمة في حركتها اليوم عبر المعمور وما يذكي دولا عظمى أوربية من شك في جدواها وخوف من بلواها فكيف ننظر ونقارن بينها وبين العالمية الإسلامية.

وقد شرعت دول عظمى في توسيع مبادراتها الهادفة إلى تعزيز العولمة خاصة في ميدانين جوهريين هما المجالان الاجتماعي والثقافي وقد نالتني شخصيا من ذلك ما يمكن أن أستخلص منه اتجاهين ذاتي حدين ظاهرهما فيه الرحمة وباطنهما من قبله العذاب فقد تلقيت من بعض هذه الدول عن طريق معهدين بيوغرافيين (Biographique) ساميين في طليعة القرن الواحد والعشرين (في فاتح يناير 2003 م بالتحديد) رسالة ترشحتني إلى اعتناء منصب الأمانة العامة لما عرف في الولايات المتحدة الأمريكية بـ "الاتفاق الدولي الموحد" Convention Culturelle Unifiée الذي يتمتع بمكانة سامية ضمن مجموع المنظمات الثقافية في مختلف القارات من بينها منظمة (اليونسكو) وما أشبهها في عواصم العالم وقد اعتذرت عن قبول هذا المنصب لعوامل لست بصدد خوض مخاطرها في نطاق مجاذبات ومناقضات العولمة الفكرية المعاصرة.